

# الخيال الاجتماعي ومسألة الايديولوجيا واليوطوبيا\*

بول ريكور

إن ما اهدف اليه من هذا المقال هو اكتشاف العلاقة بين ظاهرتين اساسيتين تلعبان دورا حاسما في الكيفية التي تتدرج بها داخل التاريخ ، لكي اربط بوعي بين ما ننتظره من المستقبل وبين تقاليدنا الموروثة وبين اختياراتنا الحاضرة . غير ان ما ظهر لي مفيدا جدا للبحث والدراسة هو ان هذا الخيال الاجتماعي او الثقافي ليس بسيطا ، ولكنه مزدوج : فهو يعمل

---

\* نشرت هذه الترجمة بمجلة « الجدل » العدد 7 / 1987 بالرباط - المغرب

قد يسهل الحديث عن الايديولوجيا كظاهرة منعزلة تماما مثلما يكون الحديث عن اليوطوبيا في ذاتها امرا سهلا . ولكن ، الى اي حد يمكن الحديث عن الايديولوجيا واليوطوبيا في علاقتهما المتبادلة ، بل الى اي حد سيكون ذلك الحديث ممكنا اذا ما حاولنا ربطهما معا بمفهوم اعم هو الخيال الاجتماعي ؟

تلك هي اشكالية « بول ريكور » في هذا المقال . ان الحديث عن الايديولوجيا - كما عن اليوطوبيا - كان دائما - وسيظل - حديثا اشكاليا وغير مستقر داخل العلوم الانسانية من جهة ، والخطاب الفلسفي من جهة اخرى . لقد ظلت الايديولوجيا في احسن الاحوال صورة للعبة القلب والتشويه الممارس على الواقع ، لعبة قد تكون شعورية او لا شعورية .... كما ظلت اليوطوبيا بدورها صورة للعبة الحلم والخيال المغرق في مثاليته ... لقد اعتبرا عموما اشكالا هامشية مرضية للوعي الخاطيء او الوعي الشقي المنفصم ... ولكن ، هل الايديولوجيا مجرد لعبة للقلب والتشويه والخداع الاجتماعي ؟ وهل اليوطوبيا مجرد لعبة للحلم والبناء الخيالي ؟ الا يمكن البحث عن مستويات اعمق من مستوى التشويه او الحلم في الايديولوجيا واليوطوبيا ، مستويات تعطي صورا اكثر ايجابية واغراء منها ؟ وكيف يمكن ان نجعل من تفكيرنا في ظاهرتي الايديولوجيا واليوطوبيا وسيلة لتعميق وعينا ليس فقط بهاتين الظاهرتين الملازميتين لوجود الانسان ، ولكن ايضا بالخيال الاجتماعي الفاعل داخل كل مجموعة انسانية ؟ بل كيف يمكن ان نجعل من نقدنا لكل من الايديولوجيا واليوطوبيا وسيلة لتجديد نقدنا ونظرتنا لثقافتنا ، لوجودنا ولتاريخنا الذي لا يمكن ان نعيشه الا بواسطة ذلك الخيال الاجتماعي

منصف عبد الحق

أحيانا في شكل الايديولوجيا ، وأحيانا أخرى في شكل اليوطوبيا . وهنا تكمن اشكالية الملغز الذي يستحق عناية او معالجة متتالية من طرف المربين وعلماء السياسة والسوسيولوجيا والانتولوجيا اضافة الى الفلاسفة طبعاً . ان هذه الازدواجية المميزة للخيال الاجتماعي هي التي تسمح لنا باكتشاف بنية الصراع الداخلية .

لكن ، يجب علينا - من جهة أخرى - ان نعترف بان كل محاولة تريد التفكير في كل من الايديولوجيا واليوطوبيا في ارتباطهما ، وفهما من خلال بعضها البعض تصطدم لا محالة بمجموعة من الصعوبات الكبيرة التي يستحيل تجاهلها . وحينما يتناول كل مفهوم من المفهومين في انعزال عن الآخر ، فانه عادة ما يأخذ - في اذهان الكثير - معنى جداليا ، وأحيانا قدحيا يصبح بدوره عائقا امام فهم الوظيفة الاجتماعية للخيال الجماعي . غير ان هذه الصعوبة الاولى تعكس بدورها صعوبة ثانية لا تقل عنها أهمية : فإذا كان سهلا جدا استعمال هذين المصطلحين استعمالا سجاليا ، فلان كل واحد منهما يقدم ليس فقط بالنسبة للسوسيولوجيين غير المحايدين ، بل ايضا بالنسبة للسوسيولوجيين الذين هم اكثر اهتماما بعمليات الوصف البسيطة - مظهرين متناقضين : اولهما ايجابي في مقابل الآخر السلبي ، او اذا شئت ، مظهر يتعلق بوظيفة بنائية ، وآخر بوظيفة تقويسية . وقد لا نقف عند هذا الحد ، بل يمكن ان نذهب الى ابعد من ذلك : فالجانب المرضي السلبي في هاتين الوظيفتين هو الذي يتم التركيز عليه اكثر داخل كل الدراسات السطحية لظاهرتي الايديولوجيا واليوطوبيا . وبالفعل ، فاننا نكتفي بكل ارتياح في تعريفنا للايديولوجيا باعتبارها مجرد اختلالات او انحرافات ( تصيب الوعي الانساني ) وعمليات تشويه نجب بواسطتها عن وعينا موقعنا الطبقي مثلا ، وعموما انتماءنا لمختلف المجموعات الانسانية التي نساهم فيها . وهكذا ، وبكل بساطة ، تتمثل الايديولوجيا كخداع اجتماعي خالص ، بل كثيرا ما تنزل بها الى مستوى الوهم الذي تتخذه كسلاح للدفاع عن وضعنا الاجتماعي بكل ما يحتويه من امتيازات ومظالم ... وفي مقابل ذلك ، تهتم اليوطوبيا - بنفس الارتياح ايضا - بانها مجرد هروب او انفلات من الواقع ، انها بمثابة خيال حالم مطبق على مجال السياسة . وبناء على ذلك ، فاننا نهجم جفاف المشروعات اليوطوبية شبه - الهندسية ونرفضها بمجرد ان يظهر لنا بانها لا تثير حماس الخطوات الأولى التي ينبغي القيام بها في انجاح تحقيقها ولا تشجع عموما كل ما يرتبط بمنطق الممارسة واندفاعها الفعلي . انذاك ، تصبح اليوطوبيا مجرد طريقة للحلم بالممارسة ، حلم يمنع من التفكير في شروط امكانية ادماجها داخل الوضعية الحالية .

ان التحليل الذي اقترحه هنا سيعمل اولا على تنظيم وترتيب مختلف الدلالات والوظائف المتميزة التي تلحق بكل من الايديولوجيا واليوطوبيا باعتبارهما مظهرين اساسيين للخيال الاجتماعي ، ثم ساقوم توازيا بين المستويات الخاصة بكل من الظاهرتين . واخيرا ، سباحث عن الارتباطات العميقة التي تجمع بينهما فيما يتعلق بمستوياتهما الاساسية ، واذن ، ساتبع تحليلا يركز على المستويات المختلفة للظاهرتين ، يبتدىء بالمستويات الظاهرة السطحية لكي ينتهي بالمستويات العميقة . وسأحاول - في تحليلي هذا - المحافظة على نفس البنية اثناء الموازنة بين الايديولوجيا واليوطوبيا لكي اهيء للتفكير في ارتباطاتهما العميقة ...

## I — الايديولوجيا

سأبدأ أولا بمعالجة ثلاثة استعمالات . مشروعة كلها - لمفهوم الايديولوجيا ، كل واحد منها يطابق مستوى معيناً من مستويات الظاهرة المترتبة (1)

**1 - المستوى الاول للايديولوجيا :** لننتقل من معنى الايديولوجيا كاختلال وتشويه للواقع. وهو الذي يطابق الاستعمال الشائع لكلمة « ايديولوجيا » الذي انتشر عبر كتابات ماركس الشاب منذ تأليفه للمدونات الاقتصادية - السياسية سنة 1943 - 1844 - وبالخصوص بعد ظهور كتاب « الايديولوجيا الالمانية » . ولا تفوتني الفرصة هنا دون ان اشير الى ان ماركس نفسه قد استعار المفهوم من فلاسفة سابقين ذوي اهمية كبيرة اطلقوا على انفسهم اسم : « الايديولوجيين » ، وهم الذين ورثوا في فرنسا فكر « كوندياك » . لقد اعتبر هؤلاء الايديولوجيا دراسة تحليلية للافكار التي يكونها العقل البشري عن الاشياء . غير ان نابليون سيتهم هؤلاء الايديولوجيين المسالمين اتهامات كبيرة وسيعتبرهم خطراً على النظام الاجتماعي ، وهو بذلك اول من اعطى للايديولوجيا دلالة سلبية قديمة ، ولا شك في انه خلف كل هجوم اورفض للايديولوجيا يخفي « نابليون » معين ، وتلك مسألة اخرى سنعود اليها فيما بعد . والملاحظ ان « ماركس » حاول ان يفهم الاخرين المعنى الذي يقصده بكلمة ايديولوجيا مستعملاً في ذلك استعارة محددة ، انها استعارة انعكاس الصورة وانقلابها ، داخل الغرفة السوداء ، وهي المنطلق الاساسي في كل عملية تصوير ، ومنذ ذلك الحين ، أصبحت الوظيفة الاولى التي تلحق بالايديولوجيا هي صنع صور معكوسة عن الواقع .

ما الذي تعنيه فعلاً هذه الاستعارة ؟ اننا نجد لها عند ماركس تطبيقاً خاصاً محدداً ، وفي الوقت نفسه استعمالاً معمماً ، وقد كان فيروباخ هو مصدر ذلك التطبيق المحدد : انه يتعلق بدراسة الدين كظاهرة تقوم على اختلال او انحراف ( يصيب الوعي ) ، وعلى تشويه الواقع . لقد ادعى فيروباخ في كتابه « ماهية الديانة المسيحية » ، بانه داخل الدين يتم اسقاط مجموعة من الخصائص البشرية ( التي يطلق عليها اسم : الصفات ) على كائن الهي خيالي بشكل تحولت فيه الصفات الخالدة المميزة للانسان الى صفات انسانية مميزة لئلا . وقد ارتأى ماركس بان هذا اللقب ( الذي يتم على مستوى الصفات البشرية ) هو نموذج كل اشكال القلب الايديولوجية . بهذا المعنى ، شكل نقد الدين عند فيروباخ النموذج النظري الاساسي لتأويل استعارة الصورة المنعكسة المقلوبة داخل الغرفة السوداء ( = الصورة الفتوغرافية ) لقد استفاد ماركس من نقد فيروباخ للدين ، لكن ما اضافته فعلاً هو ذلك الربط الذي يقيمه بين التمثيلات الفكرية وبين واقع الحياة الذي يطلق عليه اسم : البراكسيس Praxis أو الممارسة الانسانية الواقعية . بهذا الشكل ينتقل ماركس من المعنى الضيق لكلمة ايديولوجيا الى معناه الواسع الذي يعتبر ان الحياة الواقعية للانسان تسبق مبدئياً تمثالاته الذهنية . ان التخيل الانساني هو مجرد انعكاس لحياة الانسان الواقعية ولممارساته . ذلك الانعكاس هو الايديولوجيا بالتحديد . وهكذا ، تصبح الايديولوجيا هي العملية العامة التي بواسطتها تعمل التمثيلات الخيالية للانسان على تشويه حياته الواقعية وممارساته الفعلية . ويمكن ان نلاحظ مباشرة كيف ترتبط المهمة الثورية بنظرية الايديولوجيا ( عند ماركس ) : فاذا كانت الايديولوجيا مجرد صورة مشوهة أو قلب أو تزييف للحياة الواقعية . فان المهمة الثورية ستعمل على اعادة الامور الى نصابها ، ويجب على الانسان

الذي تعود الوقوف على راسه ان يسترجع وضعه الطبيعي وان يقف من جديد على رجليه ؛ وليكن « هيجل » هو اول من ينبغي ان ينطبق عليه هذا القلب ؛ يجب ان ننزل الافكار من سماء الخيال الى ارض الممارسة الواقعية ... ذلك عموما هو تعريف المادية التاريخية التي لا تهدف مطلقا الى معرفة كل الشياء والاحاطة بها بقدر ما تهدف أساسا الى ربط عالم التمثلات الذهنية بعالم الحياة الواقعية ، عالم الممارسات ...

داخل هذه المرحلة الاولى من الفكر الماركسي ( = مرحلة الايديولوجيا الالمانية ) لم يتم بعدمعارضة الايديولوجيا مع العلم مادام هذا العلم المزعم لن يظهر الا مع صدور كتاب : « الرأسمال » . ولن يتحقق ذلك التعارض العام بين العلم والايديولوجيا الا في مراحل متأخرة من تطور الفكر الماركسي ، حينما سيتحول هذا الاخير - لدى التابعين - الى مذهب رسمي متبنّى من طرف الاحزاب الاجتماعية الديمقراطية ( La social-démocratie ) الالمانية . آنذاك سيظهر التقابل بين العلم والايديولوجيا كتعارض من نوع ثانٍ ينضاف الى التعارض الاصلي الاول بين الايديولوجيا وبين الممارسة الواقعية للأفراد . ولا يخفي عن اذهاننا كيف تسرب هذا التعارض الثاني الى جانب الاول : فإذا قبلنا كون الماركسية هي العلم الحقيقي الخاص بالتطور الاقتصادي والاجتماعي ، فان الممارسة الانسانية هي التي ستكتسب - تبعا لذلك - طابعا علميا مع الماركسية ( التي تدرسها ) ، في مقابل التمثلات الخيالية التي تظل كل تصورات الحياة الاجتماعية والسياسية سجينة لها .

ان ما يهمنا هنا ليس هو دحض هذا المفهوم الماركسي الاول عن الايديولوجيا ، ولكن موضعيته في علاقته بوظيفة اساسية ومؤسسة للواقع الاجتماعي والممارسة الانسانية ذاتها لماذا لا يمكن لنا ان نتوقف عند هذا المفهوم الاول للايديولوجيا فقط ؟

إن ذلك يرجع اساسا الى ان استعارة الانعكاس المشوه تخفي بدورها صعوبة كبيرة جدا تتعلق بتفسير ظاهرة الايديولوجيا ذاتها . فإذا قبلنا فعلا ان تكون الحياة الواقعية - أي الممارسة الانسانية عموما - سابقة مبدئيا وواقعيًا للوعي الانساني و لتمثلات ذلك الوعي ، فاننا - والحالة هذه - لن نفهم ابدا كيف يمكن لتلك الحياة الواقعية ان تخلق صورة ما عنها ، وبالأحرى صورة مشوهة ومقلوبة . ويبدو اننا لن نتمكن من فهم ذلك الا اذا ميزنا - داخل بنية الممارسة الانسانية ذاتها - وسيطا رمزيا يمكنه ان يخضع لعملياتي التحريف والتشويه ... وبعبارة أخرى ، اذا لم يكن الخيال متخللا لكل ممارسة انسانية ، فاننا لا نرى كيف يمكن ان تتولد صورة خاطئة ومشوهة عن الواقع . ونحن نعرف جميعا كيف وقع الماركسيون الارثوذكسيون في فخ مقولة الوعي المنعكس التي هي في واقع الامر مجرد تكرار لاستعارة الصورة المنعكسة المقلوبة القديمة . واذن ، يجب علينا ان نفهم باي معنى يكون الخيال متواجدا في عمق كل ممارسة انسانية ومتخللا لها اصلا .

**2 - المستوى الثاني للايديولوجيا :** وهكذا ، نجدنا مضطرين الى الانتقال الى مستوى ثانٍ لا تظهر فيه الايديولوجيا كظاهرة هامشية مشوهة وتزييفية ، بل تبريرية . وقد لامس ماركس ذاته هذا المعنى الثاني حينما اعلن ان افكار الطبقة السائدة تتحول دائما الى افكار سائدة بفعل تقديم ذاتها كافكار كونية شمولية . بهذا الشكل ، تصبح المصالح الخاصة بطبقة اجتماعية خاصة مصالح كونية شمولية . وقد اثار ماركس هنا ظاهرة اكثر اهمية من مقولات القلب والتشويه البسيطة ، انها ظاهرة النزوع الى التبرير التي ترافق ظاهرة السلطة وترتبط بها دائما . ان هذا المشكل يتجاوز كثيرا حدود مشكل الطبقات الاجتماعية . ونحن نعرف جميعا - وخصوصا من ظاهرة السلطة الكليانية ( Totalitarie ) - بأن ظاهرة

السيطرة السياسية ، خصوصا عندما تتأسس على العنف والرعب ، ظاهرة اوسع أو أكثر اقلاقا واثارة للخوف من ظاهرة الطبقات والصراع الطبقي . فكل سيطرة تريد تبرير ذاتها ، وتفعل ذلك باستعمال مقولات قابلة للتعميم والشمولية أي صالحة لكل الناس جميعا ... وهناك وظيفة خاصة باللغة تستجيب لضرورة التبرير هاته وتلائمها : انها الخطابة التي تزخر بالافكار شبه - الكونية .

لقد كانت العلاقة بين السيطرة السياسية وبين فن الخطابة معروفة منذ القديم . وليس هناك من شك في ان « افلاطون » كان اول من ابرز ان وجود الاستبداد السياسي يحتاج ضرورة الى رجل يتقن فن الخطابة . فلا تتمكن القوة المادية من النجاح دون اللجوء الى اقناع الافراد بواسطة خطباء المجالس العمومية . ومن هنا يكون اللجوء الى سوسيولوجيا الثقافة مفيدا جدا لاجل اكتشاف العلاقة بين ظاهرة السيطرة السياسية وبين فن الخطابة . ان تلك السوسيولوجيا تبرز ان كل المجتمعات بدون استثناء تعمل بواسطة معايير وقواعد وشبكة من الرموز الاجتماعية التي تصنع بدورها بلاغتها وتلتصق ببيانها من الخطاب ( السياسي ) العمومي . وبالفعل ، كيف يتمكن هذا الخطاب من تحقيق هدفه ، اي من اقناع الافراد والتأثير فيهم ؟ ان ذلك يتم بواسطة الاستعمال الدائم لمختلف اشكال التعبير المجازي والتشبيه كالاستعارة والنقد الساخر والايهام والمفارقة والمبالغة ، وهي ذاتها الاشكال الاسلوبية السائدة داخل النقد الادبي والمعهود في بلاغة الخطابة اليونانية والرومانية القديمة كما يمكن ان نلاحظ من هذا الاحصاء الأولي للاشكال التعبيرية ... وهذا امر يكاد يكون طبيعيا اذ يستحيل عليها - بدون شك - تصور مجتمع ما لا يصنع لذاته صورة معينة ولا يتمثلها دون اللجوء الى بلاغة الخطابة العمومية ولاشكالها التعبيرية القائمة على المجاز والتشبيه اساسا ، ان الامر هنا لا يتعلق بضعف ما او عمل او سلوك ناقص معيب ، بل بعمل عادي وطبيعي للخطاب الممتزج بالممارسة الاجتماعية التي يسميها ماركس : البراكسيس . لكن ما هي اللحظة التي تسمح بالقول بان مثل هذه الخطابة الاجتماعية العمومية قد تحولت فعلا الى ايدولوجيا ؟ ان هذا التحول - في نظري - يتحقق حينما يتم تسخير تلك الخطابة لتبرير السلطة السياسية وخدمة اغراضها . ويجب علينا هنا ان نرى في هذه الظاهرة عملا حتميا لا مناص منه - وان كان مليئا ومشحونا بالحيل - لا مجرد ذكاء خادع او تشويه . وقد سبق لماكس فيبر ( Max Weber ) في بداية هذا القرن - في كتابه « الاقتصاد والمجتمع » ان بين بان كل فئة اجتماعية متطورة تصل ضرورة الى المرحلة التي يظهر فيها اولا تمايز ما بين الحاكمين المسيرين وبين المحكومين المسيرين ، والتي تعمل فيها هذه العلاقة غير المتكافئة بالضرورة على صناعة بلاغة خطابية خاصة بالاقناع والتأثير ، لاشيء الا للحد من استعمال القوة المادية في فرض النظام القائم والعمل على استمراريته . بهذا المعنى سيرتكز كل نظام خاص بالمراقبة الاجتماعية على عمل ايدولوجي موجه اساسا الى تبرير السلطة التي يدعي القيام بها وممارستها . وهذا لا ينطبق فقط على ما اسماه « ماكس فيبر » السلطة الدينية تماما مثلما لا ينسحب فقط على السلطة المؤسسة على الاعراف والتقاليد ، بل يشمل ايضا نظام الدولة الحديثة التي يخصصها « فيبر » ايضا بميزة الدولة البيروقراطية . كيف نفسر هذه الشمولية المميزة لعمل التبرير الايدولوجي ؟ ان ما يفسر ذلك هو ان ادعاء كل نظام سلطة للمشروعية يفوق دائما انسياقنا له ويتجاوز بكثير اعتقادنا في مشروعيته الطبيعية ، هنا فراغ ينبغي ملؤه ، او هناك فائض قيمة اعتقادي تحتاجه - بل تستوجب كل سلطة وتعمل على اغتصابه من مروضيها وابتزازهم . وحينما استعمال كلمة « فائض قيمة » ، فأنني اشير هنا طبعا الى المفهوم الذي طبقه « ماركس » على مجال محدود هو مجال

العلاقات بين الراسمال وبين العمل ، اي على عملية الانتاج الاقتصادي . لكن مفهوم « فائض القيمة » - كما يظهر لي - يمكن ان ينطبق عموما على كل علاقات السيطرة والسلطة : فاینما وجدت سلطة ما ، يوجد ايضا تبرير لها وطلب دائم لذلك التبرير ؛ واینما وجد مثل ذلك التبرير ، يتزايد ايضا اللجوء الى فن الخطابة العمومية لاجل الاقتناع والتاثير ...

ان هذه الظاهرة الاخيرة تشكل - في نظري - المستوى الثاني من مستويات الظاهرة الايديولوجية وهو الذي أميزه هنا بمقولة التبرير لا بمقولة التشويه كما جاء في المستوى السابق ، اني اركز دائما على طبيعة الظاهرة الايديولوجية : اكيد انه بإمكاننا دائما التشكيك فيها ، بل ينبغي ان نفعل ذلك ، وهذا امر لا شك فيه ، ولكن - من جهة اخرى - لا يمكننا ابدا ان نتجنبها - فكل نظام سلطة يعمل على تبرير ذاته واثبات شرعيتها ، وهو عمل يفوق بكثير - الى حدود الافراط - الاعتقاد في تلك المشروعية الذي يمكن ان يقدمه اعضاء ذلك النظام في مقابل ذلك التبرير . (2) - وسيكون امرا مفيدا جدا - بهذا الصدد - مناقشة نظريات العقد الاجتماعي المشهورة جدا منذ « هوبز Hobbes » حتى « روسو Rousseau » : فكل نظرية من تلك النظريات تضمن في لحظة معينة من تاريخ خيالي مفترض ، وثبة تنقلنا من حالة الصراع والحروب الى حالة التعايش والسلم المدنيين بواسطة تنازل ما . غير ان هذه الوثبة هي التي ظلت - في كل نظريات العقد الاجتماعي - غامضة دون اي تفسير . فهي وثبة تتضمن ولادة سلطة ما وتكونها ، وبداية تبرير لتلك السلطة ، ولهذا السبب ، لا نمتلك لحد الان اية وسيلة لمعرفة درجة صفر العقد الاجتماعي ، اي اللحظة التي يولد فيها نظام اجتماعي ما كيفما كان اسمه او صفته ، اننا لا نعرف سوى انظمة سلطة متولدة عن انظمة سلطة سابقة ، ولكننا ، مع ذلك - لا نعلم شيئا عن الولادة الاصلية الخاصة بظاهرة السلطة ذاتها .

3 - المستوى الثالث للايديولوجيا : ولكن اذا لم يكن في امكاننا تحديد ولادة ظاهرة السلطة ، فيمكن لنا من جهة اخرى فهم الاسس العميقة جدا التي تقوم عليها ، وهي الاسس التي تعطي المستوى العميق الثالث من مستويات الظاهرة الايديولوجية . ويبدو لي ان الوظيفة الخاصة بالايديولوجيا داخل هذا المستوى - هي وظيفة الادماج ، وهي اساسية جدا واكثر اهمية من وظيفة التبرير ( = التي تعطي المستوى الثاني ) ووظيفة التشويه ( = التي تعطي المستوى السطحي الاول ) . ولكي نفسر معنى الادماج - كوظيفة ايديولوجية اساسية وعميقة . سننطلق من استعمال خاص ومحدود للايديولوجيا تظهر فيه وظيفة الادماج بشكل اكثر وضوحا ، وهو الاستعمال المتعلق بالطقوس والاحتفالات التخليلية التي تمكن مجموعة بشرية محددة من احياء وتخليد الاحداث التي نعتبرها اولية ومؤسسة لهويتها وذايتها الخاصة ، واذن ، ان الامر يتعلق هنا ببنية رمزية خاصة بالذاكرة الجماعية ، اننا لا نعرف لحد الان وجود مجتمعات معينة ليست لها علاقة باباحداث تظهر كاصل اولي لها باعتبارها مجموعات انسانية . ويمكن هنا ان نذكر - على سبيل المثال - اعلان استقلال امريكا الشمالية او حيازة « لاباتسي » ( La Bastille ) اثناء الثورة الفرنسية او ثورة اكتوبر بالنسبة لروسيا الشيوعية . ان المجموعة الانسانية اذ تخلد الحدث المؤسس . كما نلاحظ في الامثلة السابقة - تحافظ على علاقتها الحيوية مع جذورها الاصلية التي تربطها بذلك الحدث المؤسس (3) ... لكن ما هو دور الايديولوجيا داخل هذا السياق ؟ انه يتجلى اساسا في نشر الاعتقاد في ان هذه الاحداث المؤسسة للمجموعة الانسانية هي المكونة للذاكرة

الاجتماعية ، ومن خلال ذلك ، هي المكونة لهوية تلك المجموعة ولوحدتها . واذا كان كل فرد يتوحد ذاتيا مع التاريخ الذي يمكنه ان يحكيه عن ذاته ، فان الامر يشبه ذلك بالنسبة لكل مجتمع ، ولكن مع فرق واحد ان المجموعة الانسانية تتوحد ذاتيا مع احداث مخالفة تماما للاحداث المتعلقة بمباشرة بشخص واحد ، اضافة الى انها لا تشكل ذكريات الا بالنسبة لسلف الالباء المؤسسين لمن يخلدون تلك الاحداث ويعيشونها في احتفالهم من جديد .

ان وظيفة الايديولوجيا هنا هي العمل على تقوية الذاكرة الجماعية حتى تتحول القيمة التأسيسية الاصلية للاحداث الاولى المؤسسة موضوعا لاعتقاد كل فرد من افراد المجموعة الانسانية ، وينتج عن ذلك ان الفعل المؤسس ذاته لا يمكن ان يعاش من جديد ان يخلد من طرف افراد المجموعة الانسانية الا بواسطة تاويلات بعديّة تعيد صياغته

دائما ... وهذا يعني ايضا ان ذلك الحدث المؤسس لا يقدم ذاته مباشرة لوعي الافراد ، ولكن بطريقة ايديولوجية متوسطة مطردة . ويمكن القول بانها لا توجد اية مجموعة بشرية - سواء كانت طبقة اجتماعية او شعبا بأكمله - لا تربطها علاقة متوسطة وغير مباشرة باحداث نعتبرها ذات دلالة تأسيسية ومدشنة لوجود الجماعة . ويمكننا بسهولة تعميم هذا المثال البارز الذي قدمناه حول العلاقة التي تربط بين فعل التخليد الجماعي وبين الحدث المؤسس ، عبر التمثيل الايديولوجي . فكل مجموعة تظل قائمة وتؤمن من استمرارها ووجودها الفعلي بفعل الصورة الثابتة والدائمة التي تصنعها عن ذاتها وتمثلها ايديولوجيا . ان هذه الصورة الثابتة الدائمة هي التي تعبر عن المستوى الاكثر عمقا من مستويات الظاهرة الايديولوجية السابقة ( = تشويه الواقع ، تبرير السلطة )

غير اننا نرى في الحال كيف ان هذا المستوى التحتي القاعدي ( = وظيفة الادماج الاجتماعي ) - الذي توصلنا اليه بفعل منهج ارتدادي - لا يمكن ان يستمر ويدوم الا عبر المستويين الآخرين السابقين . وبعبارة اخرى ، ان وظيفة الادماج الاجتماعي تجد امتدادها الكامل داخل وظيفة التبرير ، كما ان وظيفة التبرير ذاتها تجد امتدادها ايضا داخل وظيفة اخفاء الواقع وتشويهه . كيف نفسر ذلك ؟

لننطلق من جديد من المثال السابق المتعلق بتخليد المجموعة الانسانية لاحداث تعتبرها مؤسسة لوجودها الخاص : فاستمرار شعلة الاصول وعظمتها يظل امرا صعبا جدا ، ولذلك كثيرا ما يتمزج - ومنذ البداية - كل من التواطؤ الجماعي وتكرير الطقوس الاحتفالية والتمثيل المبسط والمعمم وكان الايديولوجيا لا تحافظ على قوتها المحركة الا حينما تتحول الى وسيلة لتبرير السلطة التي تمكن المجموعة الانسانية من التعبير عن ذاتها وتأكيدا - كفرد كبير - على الساحة العالمية - وهذا ما نلاحظه فعلا من خلال الكيفية التي عبرها يتحول تخليد الحدث الجماعي بسهولة كبيرة جدا الى برهنة متكررة دائما وذات شكل واحد تقريبا : بواسطة تخليدنا الجماعي هذا ، نثبت للآخرين ان وجودنا بالطريقة التي نوجد عليها فعلا ، امر جيد ومقبول ، وهكذا ، تستمر الايديولوجيا في فسادها واختلالها خصوصا حينما نأخذ بعين الاعتبار التبسيط المبالغ فيه والتمثيل المضخم اللذين بواسطتهما تمتد عملية الادماج داخل عملية تبرير السلطة (4) ، وشيئا فشيئا ، تصبح الايديولوجيا شبكة لقراءة سطحية وسلطوية لا لطريقة حياة الجماعة الانسانية فقط ، بل ايضا للموقع الذي تحتله في تاريخ العالم ، الى ان تتحول الى نظرة عامة للعالم ( Vision du Monde ) وهي اذ تصل الى هذا المستوى العام ، تصبح عبارة عن قانون ثابت او شفرة رمزية شمولية يتم بواسطتها تفسير كل احداث العالم ... وهكذا ، يزداد توسع الوظيفة التبريرية للايديولوجيا تدريجيا الى ان تتسرب الى الاخلاق الاجتماعية والى الدين ، بل وتلحق حتى العلم ، الم يسبق لنا جميعا

معرفة الفكرة الجنونية المغامرة التي ابتدعها الماركسيون بعد ماركس وتبناها « لينين » ، والتي تميز بين علم بورجوازي وعلم بروليتاري ، بين فن بورجوازي وآخر بروليتاري ؟ .... ان توسع الوظيفة التبريرية للايديولوجيا يمتد الى كل مجالات الثقافة الاجتماعية ولا يترك اية ظاهرة اجتماعية سليمة . وقد بين « هابير ماس » في احد كتاباته المشهورة (5) الطابع الايديولوجي المميز للمثل العلمي والتكنولوجي الذي نعطيه حاليا للواقع . ان ما يجعل ذلك التمثل ايديولوجيا فعلا هو انحصار وظيفته فقط في الاستعمال التقني ( للموضوعات ) وفي المراقبة المنفعية (6) على حساب مجموعة من الوظائف الاخرى كوظيفة التواصل الانساني ووظيفة التقويم الاخلاقي ، ووظيفة التأمل الميتافيزيقي والديني ... وعموما ، يتحول نظام تفكيرنا بأكمله - بفعل ذلك الاختزال - الى اعتقاد جماعي ودغمائي ، وحيد غير خاضع لعملية النقد ولا قابل لها ... غير ان هذا الفساد والاختلال اللذين يلحقان وظيفة الايديولوجيا ، لا ينبغي ان يخفيا عنا الدور الايجابي لها ، اي الدور البنائي التأسيسي الجيد الذي تلعبه في حياة الجماعة . (7) .

ويجب علينا هنا ان نعيد التذكير بان كل مجموعة انسانية لا يمكنها تمثيل وجودها الخاص الا بواسطة فكرة او صورة نموذجية تصنعها عن ذاتها ؛ هذه الصورة هي التي تؤسس بدورها وحدتها وتماسكها وتقوي احساسها بهويتها الذاتية . الا ان ما يبقى صحيحا جدا في كل التحليلات النقدية والتحليلات الهجومية القديحة للظاهرة الايديولوجية ، هو ان هذه الصورة النموذجية لا يمكن ان تتوقف عن توليد ما يسمى عادة في اللغة التحليلية النفسية : عملية التبرير العقلي ، وهي العملية التي تشهد عليها الطقوس الاحتفالية المعتادة داخل الجماعات الانسانية ، وهنا تنضاف الى بلاغة الخطاب العمومي كل الامثال والحكم العامة والشعارات والصيغ اللغوية البراقة التي تجعل من الخاب سلاحا قاتلا ... واذن ، يجب علينا ان نتصفح تراتيب مستويات الظاهرة الايديولوجية الثلاثة ( = تشويه ، تبرير ، ادماج ) بعبور اتجاهيها المتعارضين نزولا وصعودا ، كما يجب علينا ان ندافع بقوة وحماس على الفكرة القائلة بان عنصر الوهم ليس هو الجانب الاساسي في الظاهرة الايديولوجية ، بل هو مجرد فساد وانحراف يصيب عملية التبرير التي تتجذر داخل الوظيفة الادماجية للايديولوجيا (8) ، تماما مثلما يجب علينا ايضا ان ندافع بنفس الحماس والقوة على الفكرة المضادة القائلة بان كل عملية تصوير او تمثيل نموذجي للجماعة الانسانية يتحول بشكل حتمي الى انحراف وتشويه وخداع كاذب .

## II — اليوطوبيا

كيف يستوجب التحليل السابق لظاهرة الايديولوجيا تحليلا موازيا لظاهرة اليوطوبيا ؟ ان السبب الاساسي لذلك هو ان الوظائف الثلاث التي ألحقناها بظاهرة الايديولوجيا تمتلك جميعها خاصية مشتركة هي تكوين تاويل خاص للحياة الواقعية . وهذا ما سبق لماركس ان انتبه اليه بشكل كامل ، غير ان هذه الوظيفة - اي دعم الواقع بتاويلات تعزيزه بها - ليست بالضرورة وظيفة خادعة وتزييفية ، انها محايدة ايضا لوظيفة التبرير ، بل وحاضرة اكثر في وظيفة الادماج ايضا . وقد سبق ان قلنا بانه بواسطة الايديولوجيا ايضا تعتقد المجموعة الانسانية في هويتها وذاتيتها الخاصة . وهكذا ، وعبر هذه الاشكال الثلاثة - تدعم الايديولوجيا وجود المجموعة الانسانية وتقوية وتضاعفه وتضمن بقاءه واستمراره ، وبالتالي تحافظ عليه كما هو . وهنا بالضبط ( وبالمقارنة



مع عمليات الدعم والحفاظ الايديولوجية تلك ) ، تكون وظيفة اليوطوبيا هي انتشار الخيال الاجتماعي من داخل الحدود الضيقة للواقع المعيش ، واسقاطه خارج ذلك الواقع ، غير انه خارج ليس له مكان معين ... هنا يكمن المعنى الاول للكلمة « يوطوبيا » : انها مكان اخر مغاير للمكان الواقعي الفعلي ، الا انه مكان ليس له تحديد ولا وضع معين ، انه مكان لا يخضع لشروط المكان ذاته . وينبغي علينا هنا ان نتحدث لا عن لا مكانية اليوطوبيا فقط ( U — topie ) ، بل عن لاحداثيتها اولا زمانيتها ( U — chronie ) لكي نبز ليس فقط خاصية الخارجية المكانية المميزة لليوطوبيا ( مكان اخر ) ، ولكن ايضا خاصية الخارجية الزمانية المميزة لها ( زمان اخر ) .

ولكي نبين وظيفة اليوطوبيا المكتملة للايديولوجيا ، يجب علينا أن نفحص بالتعاقب دلالات ثلاثة خاصة باليوطوبيا وموازية للدلالات الثلاث المميزة للايديولوجيا . إلا أننا هنا سننخذ وجهة معاكسة ، أي سننطلق من الدلالة العميقة التحتية الى الدلالة الفوقية السطحية مرورا بالدلالة الوسطى .

**1 - المستوى الأول لليوطوبيا :** ويبدو - من جهة أولى - بأنه من السهل جدا إبراز أن معنى اليوطوبيا الأساسي هو الذي يكمل ضرورة معنى الايديولوجيا الأساسي أيضا ... فإذا كانت الايديولوجيا تضمن بقاء الواقع وتحافظ عليه ، فإن اليوطوبيا تضع ذلك الواقع موضع تساؤل . بهذا المعنى كانت اليوطوبيا تعبيراً عن كل التطلعات والامكانيات الكامنة في المجموعة الانسانية التي تظل مكبوتة بفعل ضغط النظام ( السياسي والاجتماعي ) القائم . إن اليوطوبيا هي ممارسة التخيل لأجل التفكير في « طريقة مغايرة للوجود » الاجتماعي العام . وهذا ما يبرزه تاريخ اليوطوبيات : فالبوطوبيا تمس كل مجالات الحياة داخل المجتمع : إنها الحلم الكامل بنمط آخر للوجود العائلي ، وبطريقة مخالفة لامتلاك الأشياء واستهلاك الخيرات ، وبكيفية مغايرة لتنظيم الحياة السياسية ، وأخيراً ، بشكل جديد للحياة الدينية ... ولا ينبغي أن نغيب أبداً حينما نلاحظ أن اليوطوبيات ما فتئت تقدم مشاريع متعارضة مع بعضها البعض ، لأن ما تشترك فيه هو الحفر الدائم داخل النظام الاجتماعي بأشكاله المختلفة ، والبحث عن متنفس جديد . غير أن بدائل ذلك النظام الاجتماعي المحتملة كثيرة ومتناقضة فيما بينها بالضرورة . وهكذا ، نجد مثلاً تنوعاً كبيراً في اليوطوبيات المتعلقة بنظام الأسرة ابتداءً من فرضية التعفف الرهباني الى فرضية الاختلاط الحر والمشاركة الجماعية والتهتك الجنسي . ويمكن أن نلاحظ نفس التنوع فيما يخص اليوطوبيات المتعلقة بالمجال الاقتصادي ابتداءً من التي تدافع بشدة عن التقشف الصارم الدقيق ، الى التي تشجع على الاستهلاك الضخم المبالغ فيه الذي يذهب الى حد البذخ والتبذير . ولم يسلم المجال السياسي أيضاً من هذا التنوع في اليوطوبيات المتعارضة التي تمتد من اليوطوبيات الحاملة بأنظمة سياسية فوضوية الى تلك التي تدعو الى خلق نظام اجتماعي متصور بطريقة هندسية دقيقة وملزم بشكل قهري لا يحتمل ... وأخيراً ، على المستوى الديني نجد اليوطوبيا موزعة بين نزعات ملحدة وبين الابتهاج الديني المتحمس الحالم إما بنزعة مسيحية جديدة او بقداية بدائية قديمة .. ولهذا السبب ، لا ينبغي أن نعجب إذا كان تعريف اليوطوبيا انطلاقاً من مضمونها أمراً صعباً جداً ، أو إذا كانت المقارنة بين مختلف اليوطوبيات لا تخرج بأية نتيجة مشجعة . ولعل هذا يرجع الى أن وحدة الظاهرة اليوطوبية لا تنتج بتاتا عن مضمون اليوطوبيا ذاتها بقدر ما تنتج عن وظيفتها التي تظل دائماً هي اقتراح مجتمع بديل . إن اقتراح البديل هذا هو الذي يجعل من وظيفة اليوطوبيا الطرف

المقابل الجذري لوظيفة الادماج المميزة - في العمق - للايديولوجيا . إن ذلك « الخارج » أو ذلك « الوجود المغاير » المميز لليوطوبيا يقابل بشكل دقيق « الوجود الفعلي الواقعي » الذي تعلنه الايديولوجيا بمعناها العميق .

**2 - مستوى اليوطوبيا الثاني :** وسيؤكد لنا هذا التوازي الدقيق بين الايديولوجيا واليوطوبيا إذا ما تصفحنا الآن المستوى الثاني المميز لليوطوبيا . فإذا كان اعتبارنا القاضي بأن الوظيفة المحورية للايديولوجيا هي تبرير السلطة اعتبارا دقيقا وصحيحا ، فإنه سيتوجب علينا - في مقابل ذلك - أن نعتبر أن كل يوطوبيا تمارس ذاتها وتربط مصيرها بنفس المجال الذي تمارس فيه السلطة ذاتها . وبالفعل ، إن ما ترفضه اليوطوبيا وتضعه موضع تساؤل في كل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية - التي أشرنا إليها قبل قليل - هو شكل تواجد السلطة والكيفية التي تمارس بها ذاتها عبره :

سلطة أسرية ومنزلية ، سلطة اقتصادية واجتماعية ، سلطة سياسية ، سلطة ثقافية ودينية . ويمكن أن نقول بهذا الصدد بأن كل يوطوبيا من اليوطوبيات المختلفة تشكل متغيرا من متغيرات الخيال الاجتماعي الفاعل حول السلطة ذاتها . بهذا الشكل ، عرف كارل مانهايم اليوطوبيا - في كتابه المشهور « الايديولوجيا واليوطوبيا »<sup>(8)</sup> - بأنها تباعد يحدث بين الخيال الاجتماعي وبين الواقع ، تباعد يشكل في ذاته خطرا على استقرار ذلك الواقع واستمراره كما هو . وقد كان التصنيف الذي اقترحه « مانهايم » لأنواع اليوطوبيا ملائما تماما لهذا المعيار : فقد فضل أن يكون منطلق الظاهرة اليوطوبية ( الزمني ) هو « توماس موننتزر » ( Thomas Münzer ) ، الذي يعتبره « ارنست بلوخ » ( Ernest Bloch ) المنظر الشيوعي للثورة ، عوض « توماس مور » ( Thomas More ) المبدع الأول لكلمة يوطوبيا . وبالفعل ، ظلت اليوطوبيا مع « توماس مور » مجرد ظاهرة أدبية ولم تتجاوز حدود الممارسة الأسلوبية الخاصة ؛ لكنها - مع « توماس موننتزر » - ستظهر بمظهر مخالف أكثر شمولية : إنها ستتحول الى مطالبة كبرى بتحقيق عاجل وفوري لكل الأحلام التي راكمها الخيال الانساني - عبر الديانة اليهودية والمسيحية - داخل مختلف التمثلات والتصورات المروجة لفكرة نهاية التاريخ . إن اليوطوبيا تريد لنفسها أن تكون عبارة عن إسقاطولوجيا ( Eschatologie ) متحققة : لقد أراد « توماس موننتزر » أن يحقق في حاضر الزمن التاريخي المعيش كل ما أجلته النبوءة المسيحية الى نهاية التاريخ الانساني . إن كل التمايزات التي تجعلنا - على مستوى الوعي التاريخي - نعارض بين وضعية الانتظار ( = التوجه نحو المستقبل ) من جهة ، والتذكر ( = التوجه نحو الماضي ) من جهة ثانية ، والمبادرة والاختيار ( = الارتباط بالحاضر ) من جهة ثالثة ، إن كل هذه التمايزات تنمحي داخل مطلب ضروري ملح - لا يقبل أي تنازل أو تسوية - يريد تحقيق المملكة الالهية السماوية داخل العالم الأرضي ، أي يريد أن يحقق ما تعد به نهاية التاريخ وسط الصيرورة التاريخية .

ولكن ، في الوقت الذي نفهم فيه جيدا هذه الخاصية الراديكالية المميزة لليوطوبيا ، بل في الوقت الذي نتأملها فيه بإعجاب كبير ، نكتشف فيه أيضا ضعفها ونقائصها . ففي اللحظة التي تولد فيها اليوطوبيا طاقات وقدرات هائلة على التغيير ، تدعو أيضا الى إقامة أنظمة استبدادية مستقبلية قد تكون أظلم وأسوأ من الأنظمة التي تريد الاطاحة بها وتغييرها . إن هذه المفارقة المحيرة والمقلقة ترتبط بنقص أساسي مميز لما كان « مانهايم » يسميه العقلية أو الذهنية اليوطوبية . ويتجلى هذا النقص في غياب كل تفكير ذي طابع عملي وسياسي في الدعامات والمركيزات التي يمكن أن تجدها اليوطوبيا داخل الواقع الفعلي ومؤسساته وداخل

ما أسميه المعتقد فيه (Le croyable) المتواجد في فترة محددة والممكن استثماره . إن اليوطوبيا تدفعنا الى ممارسة وثبة في اتجاه خارج ما ، وثبة تحمل في ذاتها كل مخاطر الخطاب الجنوني المغامر المندفع ، بل الخطاب الجائر الدموي أحيانا . إن اليوطوبيا تعمل على إنشاء سجن خيالي آخر - مخالف لسجن الواقع - يقوم على مجموعة من التصورات النظرية التخطيطية التي تجبر الفكر وتلزمه إلزاما كبيرا جدا أكثر من إلزام الواقع ، إن لم يبلغ إلزامها للفكر أحيانا درجة يغيب فيها الإلزام الواقعي الفعلي . ولذلك ، لا ينبغي أن نعجب من الاحتفال الملازم للعقلية اليوطوبية والموجه لمنطق الممارسة الفعلية من جهة أولى ، كما لا ينبغي أن نعجب من جهة ثانية من عجزها الأساسي في تحديث الخطوة العملية الأولى التي ينبغي القيام بها في اتجاه تحقيق مشروعها اليوطوبي انطلاقا من الواقع الفعلي ذاته .

**3 - مستوى اليوطوبيا الثالث :** وهكذا ، إن مستوى اليوطوبيا الثاني يسوقنا الى مستواها الثالث ، وهو الذي يظهر فيه طابعها المرضي المعاكس للجانب المرضي أيضا في الايديولوجيا . فإذا كان الجانب المرضي في الايديولوجيا يكمن في قرابتها من الوهم والتشويه فإن الجانب المرضي في اليوطوبيا يكمن في حماقة أخرى معاكسة . ففي الوقت الذي تدعم فيه الايديولوجيا وتقوي ما كان ماركس يسميه « الحياة الواقعية أو الممارسة » ، تعمل اليوطوبيا على تذيب الواقع لحساب التصورات النظرية التخطيطية المكتملة التي لا يمكن تقريبا تحقيقها . داخل اليوطوبيا يعتمل منطق جنوني يراهن على الكل أو اللا شيء ، منطق مخالف تماما لمنطق الممارسة الواقعي الذي يعرف دائما بأن ما يتمناه الانسان لا يطابق ما يحققه فعلا ولا يوافقه ، بل ويعرف أيضا بأن الممارسة تولد تناقضات حتمية لا يمكن تفاديها أبدا نذكر منها على سبيل المثال التناقض بين ضرورة العدالة وبين ضرورة المساواة بالنسبة لمجتمعاتنا الحديثة .

وهكذا ، إن منطق اليوطوبيا يتحول الى منطق يريد الكل أو اللا شيء ، وهو نفسه المنطق الذي يدفع البعض الى الهروب من الواقع والانزواء داخل عالم الكتابة ، كما يدفع البعض الآخر الى الحنين الى نعيم مفقود والانغلاق الذاتي الكامل داخل الحلم بذلك النعيم الأصلي الخالد ، وهو أخيرا المنطق ذاته الذي يذهب البعض أيضا الى القتل الجنوني دون أي تمييز . لكن لا أريد أن أتوقف عند هذه الرؤية السلبية لليوطوبيا ، بل بالعكس من ذلك أريد أن أستعيد وظيفة اليوطوبيا التحريرية التي تختفي وراء صورها المبالغ فيها . فعلا ، إن تخيل اللامكان يعني أيضا فتح المجال أمام عالم الممكن وإبقاء ذلك المجال مفتوحا على الدوام . ويمكن أن نقول بعبارة أخرى . حتى نحافظ على المصطلحات التي تبينناها في تفكيرنا في معنى التاريخ - إن اليوطوبيا هي التي تمنع كلا من أفق التوقعات المستقبلية المنتظرة وحقل التجربة الواقعية من الذوبان والانصهار في بعضهما البعض : إنها هي التي تحافظ على التباعد بين الأمل المستقبلي وبين التقليد الموروث ...

**في طريق الختام :** إن هذا التفكير المزدوج الذي خصصناه - بالتتابع - لكل من الايديولوجيا واليوطوبيا ، يقودنا الى التفكير في التقاطع أو الالتقاء الضروري بينهما داخل الخيال الاجتماعي . إن الأمر يبدو وكأن هذا الخيال يقوم على التوتر بين وظيفة الادماج ( الايديولوجية ) وبين وظيفة الهدم ( اليوطوبية ) إن هذه الخاصية تجعل من الخيال الاجتماعي لا يختلف كثيرا - من حيث الأساس - عن ما نعرفه عن التخيل الفردي - فالصورة التخيلية تملأ أحيانا فراغ شيء موجود وتنتميه ، ولكنها أحيانا أخرى تعوضه بتخيل جديد . بهذا الشكل ، تمكن « كانط » (Kant) من إنشاء مفهوم التخيل المتعالي (L'imagi-

(nation transcendante) على أساس هذا التناوب بين التخيل المصور على أساس هذا التناوب بين التخيل المصور (L'imagination reproductrice) أي الذي يعيد تصوير الأشياء ، وبين التخيل المنتج أو المبدع (L'imagination productrice) أي الذي ينتج أشياء جديدة .

ويمكن اعتبار أن الايديولوجيا واليوطوبيا شكلان للتخيل المصور والتخيل المنتج . ويبدو أن الخيال الاجتماعي لا يمكنه أن يمارس وظيفة المغايرة والغربة والانفتاح إلا من خلال اليوطوبيا ، وبالمثل ، لا يمكنه أن يكرس وظيفة تكرار الواقع وتصويره إلا من خلال الايديولوجيا . ولا يجب أن نتوقف عند هذا الحد ، بل يجب أن نضيف بأنه لا يمكن لنا أن نعرف الخيال الاجتماعي إلا من خلال أشكاله المرضية ( = الايديولوجيا واليوطوبيا ) التي هي صور معكوسة بالمقارنة مع بعضها البعض ، تلك الأشكال المرضية التي هي مجرد مظاهرها أسماء « جورج لوكاش » - من داخل اتجاهه الماركسي - الوعي الخاطئ . ويبدو أننا لن نحصل على الطاقة الابداعية للتخيل إلا عبر علاقة نقدية مع الايديولوجيا واليوطوبيات كشكلين من أشكال الوعي الخاطئ .

وإذا كانت هذه الإشارة صحيحة ، فإننا نكون قد وصلنا هنا الى النقطة التي تتكامل فيها كل من الايديولوجيا واليوطوبيا . ولا يرجع ذلك الى توازيهما فقط أو تقابلهما ، بل يرجع أيضا الى تبادلاتهما المشتركة . وبالقفل ، يبدو بأننا في حاجة كبيرة لليوطوبيا - عبر وظيفتها الأساسية وهي وظيفة رفض الواقع والتشبث بواقع آخر مغاير بشكل جذري - بهدف تطوير وتحسين نقد جذري موجه لكل الايديولوجيات . لكن العكس صحيح أيضا ؛ إذ يظهر بأنه ينبغي علينا ان نستعين بالوظيفة الصحيحة للايديولوجيا ، أي بقدرتها على منح مجموعة تاريخية معادل ما يمكن أن نسميه : ذاتيتها السردية ، بهدف تخلص اليوطوبيا من جنونها الشقي المندفع الذي يهيمن عليها باستمرار . وسأتوقف عند هذه اللحظة التي تتضخم فيها مفارقة الخيال الاجتماعي بشكل حاد : لكي نتمكن من الحلم بعالم مغاير ، وجب علينا أن نكتشف مسبقا - بواسطة تأويل مستمر ومتجدد للتقاليد المتوارثة التي صدرنا عنها - شيئا ما معادلا لذاتيتنا السردية . ولكن الايديولوجيات التي تختفي فيها هذه الذاتية السردية تحتاج - من جهة أخرى - الى وعي قادر على مواجهة ذاته مباشرة دون أي تعثر أو خطإ ينطلق من الفراغ<sup>(9)</sup> .

بول ريكور Paul Ricœur  
ترجمة : منصف عبد الحق

## هوامش النص

- النص التالي هو ترجمة لمقال بعنوان :
- l'idéologie et l'utopie : deux expressions de l'imaginaire social .
- وقد نشر بول ريكور هذا المقال لأول مرة في :
- Philosophical exchange - Neuy york - 1976 n°2 .
- تحت عنوان : Ideology and and utopia وقد أعاد نشره مؤخرا في كتاب :
- Du texte à l'action —
- Essais d'herméneutique II Seuil, Paris, 1986.

ونشير الى أننا أضفنا بعض الهوامش الى الهوامش الأصلية لمزيد من التوضيح ، كما أننا وضعنا بعض الإضافات داخل النص بين قوسين لنفس الغاية .

1 - يميز بول ريكور بين 3 مستويات متراتبية للاستعمال الايديولوجي :

أ - الايديولوجيا كتشويه للواقع ، وهو المستوى السطحي .

ب - الايديولوجيا كتبرير للسلطة ، وهو المستوى المتوسط .

ج - الايديولوجيا كإدماج اجتماعي ، وهو المستوى العميق . ( المترجم ) .

2 - لهذا السبب تحدث الكاتب عن فائض قيمة : فما تفرزه أو تنتجه السلطة من تبرير يفوق بكثير ما تفرزه أو تنتجه مجموعة الأفراد المرؤوسين من اعتقاد في تلك السلطة . هناك عدم توازن بين إنتاج التبرير وبين إنتاج الاعتقاد - أن صح التعبير - وهذا ينتج عنه فيض على مستوى التبرير بالقياس مع مستوى الاعتقاد ( المترجم )

3 - هذا السلوك الجماعي الذي يؤسس المستوى العميق الثالث للايديولوجيا حسب بول ريكور ، تتحقق فيه - في نظرنا - كل مواصفات السلوك الاسطوري الذي يكرر احداثا اولية هي التي دشنت بالضبط تاريخ الجماعة ومنحتها وجودها الفعلي وذاتيتها . بهذا المعنى يمكن القول بأن وظيفة الإدماج الايديولوجي ذات ابعاد اسطورية بالمعنى الايجابي لكلمة اسطورة - حول السلوك الاسطوري راجع كتاب « ميرسيا إلياد » .

4 - وذلك هو الطابع السلبي للايديولوجيا حسب بول ريكور ( المترجم )

5 J. Habermas : La technique et la science comme « idéologie »  
(Paris, Gallimard, 1973).

6 - هناك مقال سبق لنا ترجمته يحلل علاقة الرغبة بالفضاء الهندسي في الفلسفة الحديثة ، ويبرز على الخصوص علاقة الرغبة الانسانية بالسيطرة على الفضاء والمراقبة المطلقة للموضوعات وللذات العاملة أيضا . صاحب المقال هو « جان ماري جكو » من جامعة « هارفارد » . راجع : الرغبة والفضاء في الفلسفة الحديثة - منشور في يومية « أنوال الثقافي » - عدد 36 - السنة الثامنة 1987 - تصدر بالمغرب ( المترجم ) .

7 - يقصد وظيفة الإدماج الاجتماعي التي تقوي الاحساس بوحدة الأصول والأحداث المؤسسة لوجود الجماعة ( المترجم )

8 - أي أن تبرير السلطة التي تكون بيد طبقة اجتماعية معينة في مقابل طبقات أخرى هو مجرد انحراف لعملية التبرير الأصلية في كل إيديولوجيا : تبرير وجود الجماعة بكاملها لأجل تحقيق اندماجها الجماعي الكامل وإثبات هويتها العامة . وهذه هي الوظيفة الايجابية الأصلية لكل إيديولوجيا - حسب بول ريكور - التي تتحول بفعل انحراف وظيفة التبرير الايديولوجي الأصلية الى تبرير يخدم أهداف طبقة اجتماعية أو أقلية معينة ( المترجم ) .

9 - لا ينبغي أن نغفل في مناقشتنا للايديولوجيا واليوطوبيا عن كونهما يشكلان مفهومين سجاليين ، وتبعاً لذلك يصعب استعمالهما بطريقة وصفية خالصة . وإذا كان يمكننا القول مع « كارل مانهايم » بأن عقلية ما تكون يوطوبية حينما تفتقد ملاءمتها مع واقع الأشياء التي تتكون فيه ، فيجب علينا أن نضيف بسرعة بأن الظاهرة اليوطوبية تظهر عبر ألوان وأشكال متعارضة تماما ، وذلك يرجع لكون المشروع اليوطوبي قد يكون مطلوباً من طرف فئة محرومة من السلطة ، أو مرفوضاً من طرف فئة أخرى هي التي تهددها اليوطوبيا ، ويمكن القول بأن ما هو يوطوبي تقريبا هو كل ما يعتبره ممثلو نظام سياسي واجتماعي معين خطراً على هذا النظام ، وفي الوقت نفسه ، أمراً مستحيل التحقيق داخل أي نظام آخر ... ( المؤلف ) .